



تحول المفردة التشكيلية

من كفن الجنين إلى الشرنقة و بالعكس

يتنامى تطوّر المفاهيم الفكرية في فن وليد المصري باتجاه اللبوس (السيميولوجي) الدلالي : ذلك أنه موسوماً بصفتين تشكيليتين متلازمتين محكومتان بالقصد والإلماح الرمزي : المنمالية (الاختزالية) من جهة، والتعبيرية (المفاهيمية) من جهة أخرى : تتشبث هذه الثنائية النقدية (النظرية) بخصائص هيكلية تصويره ، وذلك منذ استهلالاته المبكرة .

مفاهيم إختبارية معاصرة تسعى لاستبطان ما هو كامن و سري ولغزي في رئة الفراغ، مستبيناً خرائط سيميائية - خيميائية سحرية (alchimique) يعصى كشفها على البصر و البصيرة.

دعونا نتأمل تجريد تكويناته و إحكام "طبوغرافية" تشريح الفراغ العام (بمعزل عن العناصر التفصيلية) أنا أجد أن هناك علاقة وشيجة بين هذه " الطبوغرافية" (التي تجعل مواقع الأشكال لا تقبل أي تعديل) والثوية الطاوية ، ربما ؟ لم لا فهي الفلسفة التشكيلية الخاصة بتصوير رولوهات النفس الإلهي ، تتفق خرائط وليد المصري مع نواظم المناظر الطاوية (الموروثة لدى فناني الشرق الأوسط مع صناعة الكاغد و الحرير من القرن الثامن للميلاد) . أقول في الحالتين يتفوق الوجود الشكلي على لا وجوده (الخلاء أو العدم)، هي الترجمة التشكيلية أو البصرية لدى الطرفين إنسياقاً وراء أطروحة « أفضلية الفراغ على الامتلاء » (تأثرت اللوحة الغربية بها عن طريق تأثير الإستامب الياباني على التكوينات الإنطباعية في القرن التاسع عشر فجاءت متأخرة عن الشرق عدة قرون) مقارنة بالتأثير المغولي أو الغزنوي في الشرق.

يحفظ وليد إذن مفهوم التنزيه (المعاكس للتنشبيه) إخلاصاً لموروثه هذا، فيشتق من مقام الوجود : الوجدانية و الوجدية قبل بلوغ الوجدية .

تتجاوز هذه المفاهيم بعدها التأملية الفلسفي لتمارس سلطة حميمة غبطوية على إنفعالات لوحته .

تتقارب إذن دلالة المفردات التشكيلية (le module) من هيئة الحوصلات « الجينية - الشرنقية »، تتراص و تتجمع وفق ثريا عنقودية، منطوية على نفسها لأنها منتبذة زاوية قصية عزلوية من رحابة رئة الفراغ . مستحضرة بدرجة ما بعض المجمعات الطبيعية على غرار حجيرات نشاط مجتمع النحل، و المعلق بمجمله في فراغ الغابة البكر. تتميز كل مفردة ملتبسة على حده بدورها بصفيتين : الاختزال (المنمالي) ، والزهد (الهندسي - العضوي) بمعناه الروحي. أما الالتباس في هذه الموتيفات التوأمية المتلاصقة فيصدر عن تشريحها المزدوج الدلالة : تارة شرنقة (خاصة بدودة القز أو الحرير) وتارة كفن طفولي ناصع البياض (مثل أجنحة ملائكة الموت) ، التباس متزامن يجري ضمن إدراك لحظي متزامن أشبه بالتداعي المتبادل ، تماماً كما تلتقط الأذن علامتين موسيقيتين في نفس الوقت (الدو و السول ضمن نظام "الكونتربيان") ، أو اصطدام شبكية العين بتزامن لونين متجاورين مثل الأصفر و البنفسجي.

موتيفات جزئية ، ظاهرها بيولوجي و باطنها متصل بذاكرة المذابح المسعورة التي اجتاحت كاللهيب و الطاعون أطفال المدن و القرى السورية، فازدانت المعمورة بأجسادهم البضة : ذكور و إناث في عمر الزهور و الفراشات ، تنتظم صفوف أكفانها البيضاء قبل دفنها في ضمير و نواح الكترا و الخنساء. صفوف تتزاحم في مسار متناول داخل مدافن متطاوله قبل أن يُثال عليها التراب لأخر مرة خافياً جرائم الطغيان و سدنة الشر و جلادو الموت تحت التعذيب.

تنافس صورة الشرنقة أخيراً بتداعيتها كل مرة جلاد هؤلاء الرضع ، و كأنها رغبة دقينة في العزاء ! كمن يشيح الطرف عن تفاصيل صور هيروشيما و ناغازاكي الكابوسية.

إذا كانت حساسية فناننا الرهيفة بالنتيجة وليدة ألغاز لوحته، فهي بدورها ترفض خيانة ذاكرتها الجريحة ! عصية على كتم أنفاس وصور المأساة القيامية في بلده البعيد القريب. كل لوحة لوليد تمثل جثة مجنحة تصرخ في وادٍ أصم.

أسعد عرابي

فنان فرنسي من أصل لبناني وباحث في علم الفن و الجمال من مواليد ١٩٤١ م .